الملك الشهيد
عبد الله بن الحسين

تعقيب على مقال (الرسالة)

من مذكرات

بقلم الأستاذ أحمد رمزى بك

القنصل العام السابق لمصر بفلسطين وشرق الأردن

بين ١٩٣٥ و ١٩٣٧

— ١ —

حينما بدأت هذه الكلمة كان أمامى ديوان البحترى مفتوحا فوقع نظرى على بيتين من الشعر لا أدرى من الممدوح فيهما ، ولكنى رأيتهما ينطبقان على عبد الله بن الحسين ، رحمة الله عليه :

لو أن كفك لم تجد لمؤمل ... لكفاه عاجل وجهك المتهلل

وتصرفت بك فى المكارم همة ... نزلت من العلياء أعلى منزل

رحم الله الملك الراحل ! لقد مات ميتة الشهداء وانتقل إلى الرفيق الأعلى . ولقد « كان قوة مؤثرة فى سياسة الشرق والغرب » كما قال عنه الأستاذ أحمد حسن الزيات بك فى مقاله الافتتاحى الذى أثار شجونى ، ودفعنى إلى الكتابة . وأنا الذى آليت أن أعتكف فى المسائل العربية منذ أمد طويل ، فجاء مقال الأستاذ الكريم وذكريات الملك الراحل ، الذى تشرفت بمعرفته عن كثب ، ومباشرته وحظيت بوده وكرمه وبعطفه ، مدة من الزمن ، فحملنى كل أولئك على أن أتكلم . لقد انتهى عبد الله بن الحسين ، ولم يعد يرهب الناس ولا يجتذب لصفه أحدا حتى يقال إننا نخدم سياسته وندعو إلى عترته ونحاول إعطاءه لونا براقا إنها كلمة الحق ، وصورة واضحة ، لا نقصد منها سوى تسجيل حياة عامل عربى عظيم ، قد أصبح بين يدى الله وفى ذمة التاريخ

إننى لا أزال أذكر أول لقاء معه فى قصره بعمان فى حجرته التى كان يخلو فيها مع بعض أخصائه ، ليقرأ الكتب ويلعب الشطرنج ، وكان ابن عمى ضابطا فى الجيش العربى ، إذ لنا فرع من عائلتنا استوطن هذه البقاع منذ أكثر من أربعين عاما ، وهو الذى قدمنى للعامل كأحد موظفى السفارة المصرية فى أنقرة . وكان هذا اللقاء فى صباح يوم الأحد ٦ مايو سنة ١٩٣٤ وكان يشاركنا فى الجلسة فؤاد باشا الخطيب ، الشاعر الأديب

ودار الحديث عن تركيا وحالتها السياسية والاقتصادية ، وقد حاول الملك الراحل أن يجعل الحديث بالتركية ، فاعتذرت لقلة بضاعتى فيها . ولما تحدثت كنت أتكلم بصراحة تامة : إذ كانت تعاليم الثورة الكمالية وأهدافها نبراسا أسير فى هداه ، وكانت كلمات الأتاتورك مصطفى كمال لا تزال ترن فى أذنى وتحرك نفسى ، وكنت أؤمل فى شئ واحد أن أعيش وأكافح لأرى مصر قد حققت استقلالها التام وحطمت قيودها التى تحول دون تقدمها ، ولذلك تحمس فؤاد الخطيب باشا وأنشد « السيف أصدق أنباء من الكتب ... »

وكنت أمضيت خمسة أعوام أقرأ عن أحوال الدولة العثمانية وعوامل تأخرها وعلة تفككها ، جئت من أطراف الأناضول : إلى قيصرية ـ الوقيشلة ـ بوزانتى فوزى باشا ـ حلب ـ حماة ـ حمص ـ دمشق . هناك حيث تقوم فرنسا بانتدابها ، لأكتشف فى نهاية سوريا الجنوبية جزءا صغيرا من الأرض يمثل أثرا حيا من آثار الدولة العثمانية — تلك هى دولة شرق الأردن — لقد كنت أقول لنفسى أفى حلم أنا أم فى يقظة ؟ إننى لا أعرف للآن ما هو الأثر الذى تركته فى نفس الملك عبد الله ، إذ لا بد أنه قال هذا شاب قد أفقدته المدنية الكثير . ولكن تحمس فؤاد الخطيب باشا جعله ينقل الحديث لناحية أخرى ويوجه إلى السؤال الآتى : هل تقدر الجمال التركى ؟ والحقيقة أننى لم أشغل نفسى كثيرا بالجمال التركى أو المصرى أو الشامى حتى أجيب على مثل هذا السؤال ؛ لأن المرأة فى الشرق قد تلقت الكثير من المديح فى الصحف والمجتمعات وعلى ألسنة القادة لدرجة أنه أصبح من الخطر مواجهة الرأى العام بأفكار لا تتفق مع الدعاية القائمة فى صالحها ، وإن كنت من أنصار تحريرها ، ولذلك أجبت العامل العربى بجملة غريبة قلت له « يجب أن ننتظر جيلا جديدا حتى نحكم على جمال المرأة التركية » . ففهم أننى لا أعير المرأة اهتماما كبيرا فى نظرتى إلى الحياة .. وإن كنت أعد أولى واجبات الدولة

إعداد جيل قوى من النساء القادرات على زيادة النسل؛ بشرط أن يكون الجيل قويا .. زيادة تستحق الأمة أن تكون بها موضع احترام الأمم الأخرى

والحقيقة التي لم أشأ أن أبوح بها ، وكانت تدور بمخيلتي ساعتئذ ، هي أن انحطاط الأمم الشرقية والإسلامية يعود إلى ضعف المرأة جسميا وعقليا ، ولكنني لم أشأ أن أثير مشكلة كهذه في أول لقاء ..

وكتبت في مذكرتي « عاجل الأردن أمير شرق لا يفهم ضرورات ومستلزمات العصر الحالي الذي قذفتنا الأقدار لنعيش فيه . وسط أمم قوية راقية تسير على هدى مدنية جبارة دافقة زاحفة ونحن نيام.. فالويل لنا والويل للمغلوب على أمره ممن هم على شاكلتنا. إننا نسير حثيثا بخطوات واسعة إلى الفناء العاجل ... كما سارت أشور وبابل وفرعون وثمود وعاد ... إن الصمت والسكون والبيداء هي كل ما لدينا، وسيستمر هذا طويلا حتى ننقرض وتذهب ريحنا كبعض الحيوانات التي تشغل بهيا كلها العظمية أركانا في المتاحف وقاعات العرض ... إذا لم نعمل عملا حاسما

° ° °

وتناولت الغداء بفندق فلادلفيا ثم دعيت عند الجنرال بيك باشا الذي دعاني إلى زيارة مركز الجيش العربي والمدرسة الخاصة بأبناء الجنود والمسجد الذي أنشأه ، كما دعيت إلى نادي ضباط الجيش ولقيت الكثير من الترحاب . وفي اليوم التالي توجهت إلى مدينة القدس ، وأمضيت اليوم بالقنصلية المصرية مع الأصدقاء عباس حلمي وحسين عزيز وأحمد عبد المجيد ..

وزرت المعرض العربي فلفتت أنظاري صور خالد بن الوليد وطارق بن زياد والمجاهد الطرابلسي عمر المختار ، وهنا اغرورقت عيناي بالدموع إذ شعرت بأن الوسط العربي بالقدس أقرب إلى مشاعري وإحساسي من الوسط في مصر ، ولكن نفسي كانت حزينة حتى النهاية . كان كل شيء يظهر أمامي كأنه مؤقت ، وكان يبدو على العرب وهم يسيرون في الطرقات ويجلسون في المجتمعات أو يتحادثون في منازلهم وكأنهم على سفر كسكان منزل قد أنذرهم صاحبه بالإخلاء السريع وهم يستعدون في أي وقت للرحيل العاجل ...

ولم أنم تلك الليلة رغم تقليبي صفحات نسخة إنجليزية من الكتاب المقدس . لقد نسيت كل ما مر بي، في شرق الأردن وعلى جسر اللنبي وأجنحة المعرض العربي وحديث إخواني ، وترحيب رجال العرب وتناول العشاء في مطعم يهودي وسماع تلك الموسيقى الغربية التي تقدمها فرقة من الفتيات المهاجرات في أواسط أوروبا. لقد جعلني كل هذا أسرح في المستقبل البعيد، وكان كل ما حولي يدعو إلى التأمل والتساؤل ...

أما أنا فوجدت في تلك النغمات الأوربية الإجابة على سؤال العاهل العربي العظيم . ما رأيك في الجمال التركي ؟

إننا أمام زحف جارف أيها الأمير الخطير ...

ويقول أستاذنا الجليل أحمد حسن الزيات بك في مقاله البديع « لا أستطيع أن أتحدث عنه ولا أن أحكم عليه إلا من وراء ما يرى ويسمع »

وإني أحاول أن أنقل لقراء الرسالة صورة من آراء الملك الفقيد وأقواله كما جاء في بعض ما كتبه وبعض ما تحدث به

لقد وضع الفقيد كتاباً تحت اسم « من أنا » كتبه على طريقة الأسئلة والأجوبة: بدأه بقوله :

من أنت ؟

أنا عربي أنتسب إلى العرب وبهم أفخر

ما هي مفاخرك ؟ ديني ونسبي

ما هو دينك ؟ ديني الإسلام وربي الله ونبيي محمد عليه الصلاة والسلام « ص ٣ »

وقال عن العرب : « إنهم بالهداية الإلاهية والرسالة النبوية والمؤهلات العنصرية ، أسسوا المجد العظيم في سنوات معدودة »

وأراد تبرير ثورة العرب ضد الأتراك فقال :

عند ما شاخت دولة بني عثمان وسلك رجالها مسلكا يتعارض مع المبادئ العربية دنيا ودينا بدأ الخلاف السلمي بين الأمتين »

وذكر والده الحسين بن علي فقال :

« وبإرادة الله تعالى انحدت كلمة الأمة مرة أخرى مقتدية بالمنقذ الأعظم رحمه الله »

ولما تقطعت أوصال البلاد العربية قال : « إن البلاد العربية تقسمت زعامتها فئة من الناس تضع نصب العين الحرص على الحكم والتحكم ، مرة بالعصبية وأخرى بالحربية ، وأحياناً بالقوى الأجنبية »

وله رأى فى الأمة العربية يؤمن به إذ يقول : « أمة واحدة فى بقعة واحدة تحدها آسيا الصغرى فى شمالها ، وبلاد فارس فى شرقها ؛ والخليج المعروف بها ، ومن الجنوب يحدها بحر الهند ، ومن الغرب حدها البحر الأحمر فالحدود المصرية ثم بحر الروم »

وهو الرأى الذى أخذ به نورى السعيد فى مذكرته المشهورة إلى المستر كايزى ، وكان يؤمن به رياض الصلح ويصرح به كثير من زعماء العرب الانجليز والأميركيين ، أى أنهم لا يعدون المصريين عرباً ...

وللفقيد آراء صريحة فى الحكم إذ يقول :

« ليست الأمة بميراث يورث ، وليست مصالح الشعب منحة المتغلبين ، وليس القول لمن يحسن القول ، ولكن جل هذا تراث للأمين بعد الأمين ، من يظهره الله سبحانه وتعالى ، ويثبت هو جدارته فى تأدية واجبه بأمانة وإخلاص ـ ص ١٤٠ »

ورأيه هذا يتلخص فى أن العروبة والهاشمية صنوان لا يفترقان ، وأن هذا الأمر فى هذا البيت من قريش . إنه يؤمن إيماناً لا يتزعزع برسالة بنى هاشم وزعامتهم وقيادتهم للعرب كافة ، ويشاركه فى ذلك كثيرون من أبناء بلاده وأتباعه وأنصاره

وكان الكونت جاك دومال قنصلا عاما لفرنسا بالقدس ، أمضى هناك سنوات عدة ، وكتب كتابا اسماه « أصوات من الشرق ، وذكريات دبلوماسى » تحدث فى خاتمته عن مقابلة له تمت مع صاحب السمو الأمير عبد الله بن الحسين عاهل المملكة الأردنية وكان ذلك فى يوليه ١٩٣٧ ، وكان مع القنصل الفرنسى صديقان ، وجه أحدهما السؤال الآتى : أتعتقد بنهضة العرب وأن تعود الخلافة إلى الوجود بعد أن ألغيت باستانبول ؟

والإجابة التى وضعها ، الكونت دومال على لسانه هو ، تكاد تنطق بأن الكثير منها من وحى الحديث الذى دار فى ذلك الاجتماع مع الأمير . اقرأ معى « الخلافة فى ركن من أركان الإسلام ، والخليفة فى الشريعة حامى الدين وخادم الشرع ، إذن يجب أن تكون بلاده حرة وقوية ، مهيبة الجانب ، تتمتع بكامل سيادتها واستقلالها حتى تقوى به كلمة الحق والدين »

« الخليفة هو أمير المؤمنين الذى يتولى أمور المسلمين للعمل بالكتاب والسنة والشورة العامة والخروج فى الجمع ، وتلقى الأسئلة على منبر الخطابة ، والإجابة عليها — هذه هى الخلافة النبوية النير الوراثية ، والمشترط فيها القرشية »

وهى كما ترى غير الملك والسلطان ، ولقد استشهد مرة الملك الفقيد بقول عمر بن الخطاب الذى قال : « أما ولى سلطان فلا ... »

وبعد فهذه كلمات مأخوذة عن الملك عبد الله بن الحسين ، الذى كان أقرب الأبناء شبها بوالده الحسين بن على ، وأشدهم تمسكا بالتشبه به ، أضعها أمام القارئ ليعلم أنه آمن منذ المبدإ بتعاليم والده ، قائد الثورة العربية والنهضة الهاشمية فكان يعد نفسه وارث هذه الحركة ، والأمين عليها والحارس على اتجاهاتها ، وأنه ليس فى بنى هاشم من هو أحق بها منه ، ولذلك قال : « هى تراث للأمين بعد الأمين »

لقد تأثر الحسين بن على بالبلاط الحيدى وبالتربية التركية . وكذلك كان الملك عبد الله بن الحسين . لقد كان أثر الناحيتين ظاهراً عليه ، كان مثال الحاكم الشرقى الذى يعنى بملبسه ومظهره ، والذى تحيط به هالة من الاحترام والحشمة ، وكان كذلك متأثراً بالحجاز تتجه أنظاره إليه ويحبه من أعماق قلبه ، فكان ينزل إلى مكتبه ويفتح بابه ليقابله من يشاء من رعيته ... وتلك نفحة حجازية

وسنرى فى العدد القادم ذكريات سنتين قضيتهما فى القدس أعمل كقنصل عام لمصر وفلسطين وشرق الأردن ، وما لقيته من كرم الأمير وما قيدته من أحاديثه مع كبار الساسة

أحمد رمزى